روايـة

ياسين رفاعية أنسَ بيروت!

العصر الذهبي للمدينة، كما عاشه الروائي السوري، بصخبه وهزائمه وحكاياته السريّة ووجوهه الأثيرة من غسان كنفاني إلى عصام محفوظ. لكن الحدث يتشظّى ويضيع خيط السرد

خليل صويلح

يستدرجنا ياسين رفاعية في روايته «من يتذكر تاي» («دار الخيال»، بيروت) إلى بيروت الستينيات، بكل صخبها وهزائمها وحكاياتها السريّة. وإذا به يزيح اللثام عن شخصيات مشهورة بأسمائها الحقيقية؛ إذ كانت مقاهي شارع الحمرا وحاناته، ملتقى عشرات الأدباء والصحافيين في سجالات سياسية ساخنة، وخيبات عاطفية، ومشاريع إبداعية، أطاحتها هزيمة حزيران 67 التي وضعت أوزارها للتو.

يوجّه صاحب «مصرع الماس» تحية خاصة إلى ميشال أبو جودة، صاحب أشهر عمود يومي في لبنان آنذاك (جريدة «النهار»)، مروراً برواد مقهى الـ«هورس شو» أقدم مقاهي الحمرا، ليحط رحاله أخيراً في «بار تاي». في هذا البار الذي كانت تديره امرأة مصرية فاتنة، سنلتقي غسان كنفاني، ومعين بسيسو، وعصام محفوظ، وكمال ناصر، وسامي الجندي، وأكرم الحوراني... فيما كانت «تاي» محطِ أنظار الجميع وصندوق أسرارهم.

لكلٍ من هؤلاء حكايته وإحباطته في العشق والسياسة والكتابة، بمن فيهم «تاي» ابنة الباشا المصري التي درست الفلسفة في جامعة الإسكندرية، قبل أن تنتهي ساقية في إحدى حانات بيروت، إثر مصرع والدها على يد مافيا إيطالية.

نفتش عن خيوط حيوات هؤلاء المشاهير في الفصول اللاحقة، فلا نجدها إلا لماماً؛ إذ يغلق الراوي الأحداث على حكاية تاي من جهة، وعشقه لفتاة شابة تدعى شيرين من جهة ثانية. فيما هو صار عجوزاً من دون أن نغادر حقبة الستينيات الملتهبة زمناً مفترضاً للأحداث.

لعل الخلل السردي يكمن في هذه النقلة المباغتة؛ إذ لا يتوانى الراوي عن عقد صداقة بين شيرين وتاي، رغم طول المسافة بين زمني الأحداث. ما كنا نظنه مكاشفة تسجيلية ساخنة، سيتبدد فجأة، حتى إننا لن نلتقي غادة السمّان في متن الرواية باسمها الصريح، فيما تعدنا كلمة الناشر بقصة حب مستحيلة بطلها غسان كنفاني.

هذا المزج بين ما هو واقعي ومتخيّل، يضع النص في منطقة ملتبسة لجهة آليات السرد. يكتشف الراوي، أثناء زيارته بيت تاي دفتراً، يحتوي على يوميات كانت تكتبها، وها هو يستعيد أقوالا من ذلك الدفتر، ينقلها بدقة من يُقرأها الآن، رغم عدم وجود الدفتر بين يديه، على عكس دفتر آخر، سلّمته إياه لاحقاً، سيضيء جوانب من حياتها السريّة، بين القاهرة وبيروت... وإذا بالساقية الفاتنة، فيلسوفة من طراز خاص، تدعى «عائشة بنت عبدً الودود باشا»، يلجأ إليها العشاق المتعبون، فتمنحهم نصائح ثمينة تخفف الوطء عن آلامهم.

هكذا تنفجر مأساة عصام محفوظ الذي خانته حبيبته مع أحد أصدقائه، بصدمة لا تقل عن صدمة

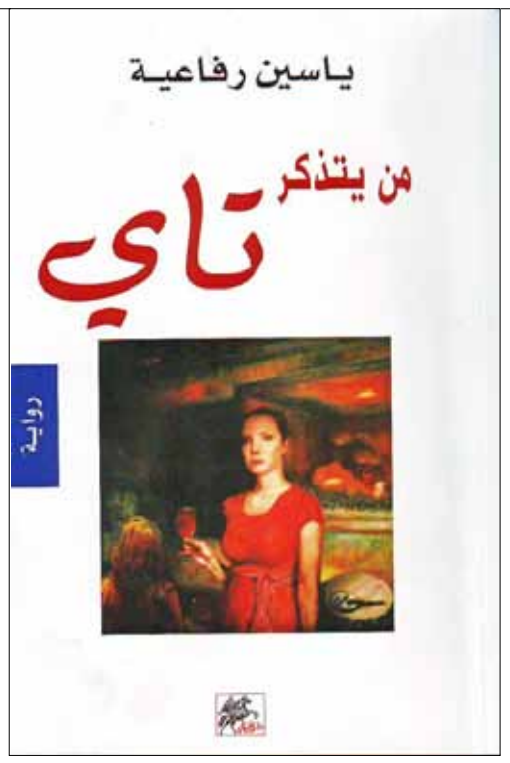

> مزج الواقعي والمتخيل... أوقع النص في التباس السرد

هزيمة حزيران. الهزيمة التي كانت تلهب مشاعر الآخرين، بكل قسوتها المدمِرة، فتنساب قصائد معين بسيسو بغضب، ويحلم غسان كنفاني بالعودة إلى يافا. فيما يغرق الراوي في قصة حب عاصفة، تتكشف عن لوليتا شرقية، ستأخذ به إلى «جنون الهذيان».

نحن أمام قصة أخرى، ستنسف ما عداها، عدا إشارات لاحقة إلى اغتيال غسان كنفاني، ثم كمال ناصر، وكمال عدوان، وأبو يوسف النجار؛ إذ يغرق الراوي في عزلة طويلة، إثر هجران حبيبته له، فهي قررت الزواج برجل أعمال مهاجر، ينتمي إلى طائفتها، ومثل عاشق خائب في أحد أفلام الأبيض والأسود، يلجأ إلى الخمرة لمعالجة آلام الخيبة في إحدى خمارات عين المريسة. مشوشاً، ومحزوناً، ومكتئباً، يسترجع رسالتها الأخيرة التي أنهتها بعبارة «مع حبي دائماً وأبداً».

ما إن يطوي الراوي صفحة حبه لشيرين، حتى نتعرّف إلى طارق. شاب سعودي، يدرس في بيروت، وقع في غرام تاي، وقرر الزواج بها، متجاهلاً فرق السن بينهما، وسيغادر لاحقاً إلى بلده. فيما تبقى بطلتنا أسيرة مرض لا شفاء منه، ينتهي بميتة مفجعة. هذا الخذلان في الحب، يقابله خذلان آخر في السرد، في خلطة حكائية غير متجانسة. فما بدا أنه سيرة مدينة، اختلط بوقائع شخصية عاشها صاحب «أسرار النرجس» لاحقاً، وإذا بقماشة أخرى تصبغ الحدث، ليتشظى إلى جهات عدة، وأزمنة متباعدة، تنطوي على ذاكرة مفلوشة، تضعنا أمام حكواتي أضاع بوصلته تحت وطأة النسيان.

شعر

«ضجر» شوقي مسلماني

حسين بن حمزة

في مجموعته الجديدة «محور مائل» (الغاوون)، وهي الخامسة له، يكتب الشاعر اللبناني شوقي مسلماني قصيدة طويلة تستثمر السرد والحكاية من دون أن تتخلى عن حساسية جملتها الشعرية وتوترها. إنها قصيدة «منفتحة على آفاق عديدة، وكل قارئ يختار أفقه»، كما وصفها وديع سعادة. هناك رؤية ناضجة ومعجم سخي يوفّران سيولة لغوية وخيارات أسلوبية متنوعة. هكذا، نقرأ مقاطع مركّزة ومكتفية بذاتها تقريباً إلى جوار سرديات منجزة على سطور كاملة.

في الحالتين، يجد القارئ نفسه أمام مشكلة السياق المتطاول للنص، إضافة إلى تقنية النفي التي تؤخّر وصول القارئ إلى المعنى، وتقنية الاسترسال التي تُفرط في إيصال المعنى إليه. اللافت أن القصيدة تبدأ بالاثنين معاً: «ولا يعرف كيف يسمع، ولا يعرف كيف يعرف، ولا يعرف كيف يرى، ولا يعرف كيف يسير، ولا يعرف كيف يلبس، وحتى لا يعرف كيف يأكل وكيف يشرب/ ويسمع، ويعرف، ويرى، ويمشي، ويلبس، ويأكل، ويشرب...». قد يفتي البعض بوجود ضرورة أسلوبية تفرض حيرةً ما على نبرة الشاعر، ولكن ذلك لا يمحو البلبلة التي تصيب النص والقارئ معاً. كأننا أمام نص «لديه وجهة نظر إنما ليست له جهة»، بحسب سطر مأخوذ منه.

هكذا، يتكرر الاسترسال في مواضع أخرى: «من الشرق جاء/ من الغرب جاء/ من الجنوب جاء/ من الشمال جاء/ من تحت جاء/ من فوق جاء/ من أسفل تحت جاء/ من أعلى فوق جاء/ من شمال الشمال جاء ...»، بل إن الشاعر لا يجد حرجاً شعرياً في استهلال 70 سطراً بجملة: «يأتي صوتُه مِنْ ...». لعل أمثولة كبرى تنتظرنا في نهاية النص، ولكن الوصول إليها مرصوف باستفاضات مضجرة.

قد يكون إضجار القارئ مطلوباً كمعادل موضوعي لضجر الشاعر، لكننا نستغرب لجوءه إلى أيسر السبل لإحداث هذا التأثير. أحياناً ينقشع سديم الاستطرادات عن سطور واضحة: «قيل إن بعضه أقبل مشرقاً وبعضه آفلاً معتماً/ قيل إن بعضه اختنق صوته، امّحى أثره، وها هو منه حجر/ قيل إن بعضه وحده/ قيل إنه على مسافة ملايين الأميال/ من كوكبنا يصطاد بقصبة من ضوء/ تنهيدةً في النهر اليابس/ قيل إن بعضه عند قمة جبل/ لكي يطلع الفجر مطمئناً يقف شامخاً كتمثال/ قيل إن شجرة تفاح سرقت تفاحته الوحيد». المقطع المضاء ببعض الصور العذبة لا يزال يشكو من بعض الثرثرة غير الحميدة، ولكنه في النهاية واحد من الاستثناءات التي تثبت فكرة أن إنجاز نص طويل لا يعني حشوه كيفما اتفق.

> رؤية ناضجة وسيولة لغوية وخيارات أسلوبية متنوعة

لمحات

◄ في «**أفق الحوار في الفكر العربي المعاصر**» («**منشورات الاختلاف**»، الجزائر و«**دار الأمان**»، الرباط و«**الدار العربية للعلوم ناشرون**»، بيروت)، يتناول **محمد آيت حمو** جملة من القضايا في الفكر العربي المعاصر على رأسها الحوار والاختلاف والتسامح والعقلانية والاجتهاد. ويولي الباحث المغربي أهمية كبيرة للحوار بوصفه الوسيلة المثلى القادرة على تحقيق «المجتمع المفتوح واستعادة الوجه المشرق للحضارة الإسلامية والعربية». ويدعو المؤلف إلى إرساء «إسلام عقلاني ومعتدل ومتسامح يرفع لواء الحوار». ينقسم الكتاب إلى فصلين كبيرين يعرضان لـ «الإسلام والتحديات الكبيرة» و«فضيلة الحوار بدل رذيلة الإقصاء».

◄ علم اجتماع الفنّ هو تخصّص تتقاطع فيه مقاربات متنوّعة مثل التاريخ الثقافي، والجماليات، وتاريخ الفنّ، وعلم النفس، وعلم الاجتماع. في «**سوسيولوجيا الفنّ**» («**المنظمة العربية للترجمة**»، توزيع «**مركز دراسات الوحدة العربية**» ـ تعريب **حسين جواد قبيسي**)، تسعى الباحثة الفرنسية **ناتالي إينيك** إلى إيجاد الخيط الرفيع بين هذه المقاربات، والتمييز بين القديم فيها الذي لم يتمكن من سبر العمق الفني، والجديد الذي هو أقلّ تأدلجاً، لكنّه غير معروف لدى غير المتخصصين. العمل يمثّل مرجعاً مختصراً ومفيداً للباحثين والطلاب العرب.

◄ «**بنات البراري**» (**دار الريس**) هن بنات الشرق اللواتي ما زلن عرضةً لممارسات القرون الوسطى. في عمل يمزج بين الواقع والمناخات السحرية، تحكي الروائية السورية **مها حسن** قصّة جرائم الشرف التي تودي بحياة النساء العربيات كل يوم. سلطانة، الصبية التي تعشق الحرية والبرية، تقع في الحبّ وتصبح بعدها ضحية جريمة الشرف، لكنّ لعنة دم الفتاة ستصبّ على القرية فتصبغ كل ما فيها باللون الأحمر.

◄ يندرج كتاب «**الطاعون وبدع الطاعون ـ الحراك الاجتماعي في بلاد المغرب بين الفقيه والطبيب والأمير**» (**مركز دراسات الوحدة العربية**) ضمن سلسلة أطروحات الدكتوراه. الباحث **حسين بوجرّة** يدرس ظاهرة الموت الجماعي التي تحوّلت من ظاهرة عامة خلال القرون الوسطى إلى ظاهرة طاعونية ابتداءً من القرن الرابع عشر. تكمن أهمية الكتاب في أنّه درس لظاهرة الطاعون وأسبابها ونتائجها في إطار الحراك السياسي والديني والطبي، حيث رصد الباحث التحوّل في مجال المعرفة الطبية والعلمية وفي الذهنيات على نحو عام.

◄ في ديوانه الجديد «**السّيل**» الصادر عن «**دار الساقي**»، يعود **سليم بركات** إلى كتابة مطولة شعرية منجزة بلغة عالية وقادرة على الإمساك بالإيقاع والمعنى معاً. الشاعر السوري (الكردي الأصل) يتباهى مجدداً بقدراته اللغوية المرموقة في مجاراة البلاغة العربية، والتفوق عليها من خلال نص تحتل فيه جموع النساء حيّز المخاطبة الشعرية كلها، ويتحولن إلى نسخة مستجدة من «الجمهرات»، الديوان الذي صنع جزءاً أساسياً من حضور بركات في المشهد الشعري منذ السبعينيات.